سينما

«ذاكرة» المكسيكي ميشيل فرانكو

ازدهار مشاعر وعلاقات شخصيات منكسرة

جديد المكسيكي ميشيل فرانكو يعاين صراعاً خفياً وقاسياً بين ذاكرة وذكريات، عبر قصة حبّ تجمع روحين مجروحتين، وتجعله دراما عاطفية حنونة

ندى الأزهري

إنْ غلب على أفلامه طابع اجتماعي رقيق، فخلف الظاهر عنف مفاجئ أو أذى مباغت، ماديّ أو معنويّ. شخصياته مركّبة وغريبة الأطوار. كريهة أو قبيحة أو عدوانية أو مشوّشة. مسكونة بألم دفين ومشاعر تندفع إلى السطح بفعلٍ فاعل. يُشيع فنّه البارع أجواء عدم ارتياح، يصاحبها ارتفاع تدريجيّ مُثير للقلق. مع هذا، أفلام المكسيكي ميشيل فرانكو، غير المعروف كما ينبغي، منتظرة دائماً، تحديداً بفضل أجواء تقترحها، وشخصيات تُقدّمها. وإن بدا بعضها خفيفاً وعادياً في البداية، فإنّها تُظهِر سريعاً وجهاً آخر مُباغتاً.

هذا حال «ذاكرة» (2023)، المعروض في «آفاق . مهرجان كارلوفي فاري 2024». في جلسة حوار لمدمني الخمر، ممن تجاوزوا إدمانهم أو أنّهم يفعلون ذلك، تحتفل سيلفيا (جيسيكا تشاستين)، الإخصائية الاجتماعية، بمرور 13 عاماً على شفائها. يوحي هذا المشهد الأول، المُصوّر بإضاءة خافتة تساعد على البوح، ولقطات كاميرا محتشمة تراقب عن بُعد، بما شوهد مراراً في أعمال أميركية. شهادات عادية عن جهاد النفس في بدايةٍ تحمل من العاديّ والتوقّع الكثير. لكنّ الفيلم يفاجئ سريعاً بتطوّر الحبكة إلى جهة مغايرة، بعيدة عن الخمر والإدمان. تنقل فرانكو، في أفلامه السابقة، بين الولايات المتحدة والمكسيك. في «ذاكرة»، اختار نيويورك، بشوارعها وأمكنتها الطبيعية وناسها، وعاد إلى شخصياته الهشّة، الظاهرة في «مرض مزمن» (2015) مثلاً، الذي جعله (إنّه كاتب أفلامه أيضاً)، قصة حب بين ممرض مُتعب، يعاني مشاكل شخصية في حياته، ومريضة في المراحل الأخيرة من المرض. «ذاكرة» يسرد أيضاً قصة حب غير متوقّعة بين شخصين هشّين: سيلفيا، المُقيمة مع ابنتها المُراهقة التي تحبّها كثيراً، وتُكرّس لها معظم وقتها بعد العمل، وسول (بيتر سارسغارد، جائزة أفضل ممثل في «مهرجان فينيسيا 2023»)، المُصاب بخرف مبكر. شخصية سيلفيا تنكشف تدريجياً، بشكلٍ تتشابك معه الرقّة بالقسوة في تمازج غريبٍ. لا يرسم الفيلم شخصيتها في البدء عبر الحوار والشرح، بل يلجأ إلى لغة بصرية، لتتجلّى قسوتها . معاناتها من المشاهد الأولى، بملامحها المنغلقة والمنقبضة، وحركاتها العصبية، وكلماتها الجافة المقتصدة، وسلوكها الحذر المبالغ به، الذي يتبدّى في إغلاق باب الشقة جيداً بالأقفال، ووضع جهاز إنذار وهي فيه، وبموقفها المتحفّز من رجل جاء يصلح البرّاد، مع أنّها طلبت امرأة لذلك. خشيتها واضحة، كانفعالها القلق مع وجود الرجل، الوجيد الذي سمحت له بالدخول. منعزلةً، تقتصر نشاطاتها على العمل وتلبية حاجات ابنتها. في يوم، تُرغَم على مرافقة أختها إلى حفلة لقدماء خرّيجي مدرستهما الثانوية. عدم اهتمامها بالزينة وارتداء ملابس خاصة بالمناسبة يُكمِل صورتها كإنسانة زاهدة تماماً. الحفلة ستكون، وهذا متوقّع، نقطة انعطاف في مسار الفيلم، يُخرجه من عادية حياة يومية. هناك، تبقى وحدها. يقترب منها مدعوّ فتهرب. يلحق بها إلى منزلها. بعد ليلة مليئة بالقلق، تجده صباحاً نائماً أمام الباب، مُبلّلاً بالمطر. يتبيّن أنْ سول خمسينيّ، يحتفظ بذكريات بعيدة وينسى الحديثة، ويتصرّف أحياناً بشكلٍ غير منطقي، كاللحاق بها. يتطلّب مراقبةً مستمرة تقريباً. مع سول، تقيم علاقة فريدة، وتنكشف ذكريات وعواطف وصدمات. اللقاء بين كائنين معطوبين، وعيشهما قصة حب غير منتظرة، في محيط عدواني (أسرة سول خاصة)، يعطي «ذاكرة» منحى جديداً، تتداخل فيه عناصر عدّة، أهمها الذاكرة. لسيلفيا علاقة موجعة مع الذاكرة والذكريات. يُبيّن الفيلم تدريجياً بعض ما تعرّضت له من عنف جنسي في طفولتها ومُراهقتها. هنا أيضاً، بدا الفيلم كأنّه سيُقحِم حركة «أنا أيضاً» في الحبكة. لكنّ فرانكو، كما هو معروف عنه، قاد الفيلم إلى هدف آخر. فإنْ كانت الاعتداءات على سيلفيا خلفية أساسية لما باتت عليه شخصيتها، اهتمّت المعالجة الدرامية أكثر بالعلاقة العاطفية والذاكرة وأسلوب التعامل مع الذكريات. إذاً، هناك رجل ينسى ذكرياته رغماً عنه، ويحاول استرجاع ذاكرته. وهناك امرأة تسعى بكل جهدها إلى التناسي، وتسقط من ذاكرتها ذكريات صادمة في فظاعتها. إنّها قصة حب تجمع روحين مجروحتين، وتُحيل «ذاكرة» إلى دراما عاطفية حنونة، تتجنّب المبالغة. ساعد على ذلك بناء متماسك للشخصيتين، وأداء مذهل للممثّلَين، يُسأَل معه عن دوريهما الحاسمين في عدم جعل العلاقة المعقّدة مثيرةً لشفقة ونفور. منحا الفيلم قوة إضافية ومتعة أكيدة، ومَسّا القلوب بأداء رقيق: محاولة سيلفيا التغلّب على ماضٍ لم يكن يمرّ، وسول على حاضر لم يكن ينقضي. في سعيهما إلى إصلاح شخصيات منكسرة، ليس من دون قليل من روح الدعابة لسول، يبدوان خير مُعبِّرَين عن التقاء روحين تائهتين.

ميشيل فرانكو معروف بحياديته تجاه شخصياته، وبقائه على مسافة منها. يتركها تتطوّر وهو يراقبها من بعيد. يُصوّرها بلقطات مقرّبة حين تعلن عن حالتها النفسية المضطربة أو الفرحة (سيلفيا تنظّف البيت حين تشتدّ نرفزتها). يستخدم لقطات بعيدة ثابتة في المواقف المحرجة، لا سيما حين الكشف والمواجهة، فيترك شخصياته لمصيرها، لتنفذ منه بطريقتها. بدا هذا واضحاً في مشهد مواجهة سيلفيا لأمّها أمام أختها وصهرها، حين كشفت سراً كبيراً من طفولتها، تغاضت عنه الأم. أكثر من أي فيلم آخر له، ينجح فرانكو بربط المشاهد بهأتين الشخصيتين المؤثّرتين، تاركاً لفيلمه العاطفي هذه المرة، خلافاً لأفلام أخرى له، برقّته وقسوته، شعوراً بأمل وذكرى بهيجة.

علاقة فريدة بين روحين تكشف ذكريات وتُشعل عواطف وصدمات

«ذاكرة»: رجلٌ ينسى ذكرياته رغما عنه وامرأة تجهد في التناسي
(الملف الصحافي)

«كابو نيغرو» للمغربي عبد الله الطايع

وقائع تُسرَد بهدوء مع بعض مللٍ مزعج

نديم جرجوره

«كابو نيغرو» منتجعٌ يُطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، في الساحل الشمالي للمغرب، يشتهر بمطاعم راقية، وشواطئ ومناظر طبيعية جبلية. يُقال إنّه مقصدُ أثرياء من المغرب ومن خارجه. هذا يظهر، قليلاً ومواربةً، في «كابو نيغرو» (2024)، للمغربي عبد الله الطايع، المُشارك في مسابقة «بروكسيما»، في الدورة الـ58 (28 يونيو/ حزيران . 6 يوليو/ تموز 2024) لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي». فالنواة الدرامية معقودةٌ على ما يعيشه الصديقان سُندس (أميمة بريد) وجعفر (يونس بايج)، في أيامٍ متتالية، في فيلا جميلة، وحيّز جغرافي هادئ، ومساحات طبيعية يظهران فيها ليلاً أو نهاراً.

إحدى ميزات «كابو نيغرو» كامنةٌ في مدّته المقبولة للغاية: 76 دقيقة. هذا يُزيل ثرثرةً، ويُكثّف مساراً يكشف أحوال صديقين، ومحيطين بهما. يوميات صيفية في منتجع ساحلي، يمضي أثرياء فيه وقتاً لراحةٍ واستجمام، ويأتيه الصديقان لتمضية وقتٍ مع حبيبٍ جعفر، المتواري عن الأنظار، في فيلا يملكها رجلٌ حادّ الملامح. صُورٌ مستلّة من واقع، تقول أشياء، وتعرّي أفراداً، وتوارب في إضاءة حالة آنية، تتمثّل بـ«حرّاقة»، أي أولئك المهاجرين والمهاجرات إلى أوروبا، عبر الساحل الشمالي الأفريقي هذا، الذين يحرقون كلّ شيءٍ وراءهم قبل المغادرة المرجوة. المدّة هذه يُفترض بها أنْ تصنع مطلوباً، درامياً وجمالياً ومعاينةً، غير مملّ وغير فارغ. فللحكاية خصوصية، يختارها عبدالله الطايع من دون افتعالٍ أو تصنّع، بل بكثير من الشفافية، والبحث عن أبسط المفردات، البصرية والكلامية، لتعبيرٍ أو بوح أو سرد. لكنْ، هناك ما يشي بملل (الروتين اليومي مُصوّر بتكرار، مع أنّ هناك لقطات تُجدِّد السياق بحكايات، بعضها غير متشابه مع بعضه الآخر)، وبشيءٍ من فراغ (لحظاتٍ عدّة تحثّ على طرح سؤال: ماذا بعد؟).

أمّا سُندس وجعفر، فيعكسان كلّ ما يحتويه نصّ (السيناريو للطايع) يبدو أنّه راغبٌ في تناول مسائل كثيرة، مع عدم تورطّه في الغوص العميق بكلّ مسألة على حدّة.

كلّ شيءٍ يبدأ من غياب جوناثان، أستاذ جعفر الذي (جعفر) يُغرم به، فالشاب مثليّ الجنس كما سُندس، عاشقة نادية (يظهر جوناثان ونادية لثوانٍ قليلة، الأول في اتصال فيديو، والثانية في صور فوتوغرافية). يصل الصديقان إلى الفيلا، لكنّ جوناثان غائب. لا يردّ على الاتصالات الهاتفية. لا أحد يعرف شيئاً عنه، وعن سبب اختفائه، قبل ذاك الاتصال الذي يطلب فيه من جعفر عدم التواصل معه نهائياً. نادية ستفعل ذلك أيضاً، ففي لحظةٍ، تكشف سُندس أنّ حبيبتها غير راغبةٍ فيها.

الغياب دافعٌ إلى سرد حكايات يومية من مدينةٍ سياحية، وبعض الحكايات تختزل أحوال أفرادٍ عابرين. في لحظة أخرى، تعثر سُندس على كتاب DreamFactory، فتتفحّصه مع جعفر: صُور ممثلين وممثلات مصريين (سعاد حسني وفريد شوقي وعماد حمدي)، وملصقات أفلام مصرية عدّة. للحصول على مالٍ يُعينهما على تمضية أيام عدّة، بعد أنْ يُسمَح لهما بالبقاء في الفيلا، يُمارس جعفر الجنس مع رجال، بعضهم يريد سندس في الوقت نفسه. هذا غير مُصوّر، فـ«كابو نيغرو» غير معنيّ بالتقاط معروفٍ عن علاقات جنسية، مثلية وغير مثلية. لأنّ الأهمّ يظهر في سرده حكاية الصديقين، ولقاءاتهما أناساً يريدون هجرة، أو يعودون بحثاً عن قبرٍ وذكرياتٍ، أو يمارسون الجنس. الجنس هذا غير واردٍ مباشرة، والتحضير له يحتاج إلى وقتٍ قليل للغاية، قبل اختفاء المعنيّين به عن عدسة الكاميرا (تصوير جوليا مِنغو).

فيلمٌ مُسلّ، مع أنّ حكايته مهمّة، واشتغاله العادي غير نافرٍ كثيراً.

صديقان يرويان حكايات أناس عديدين في منتجع ساحلي جميل

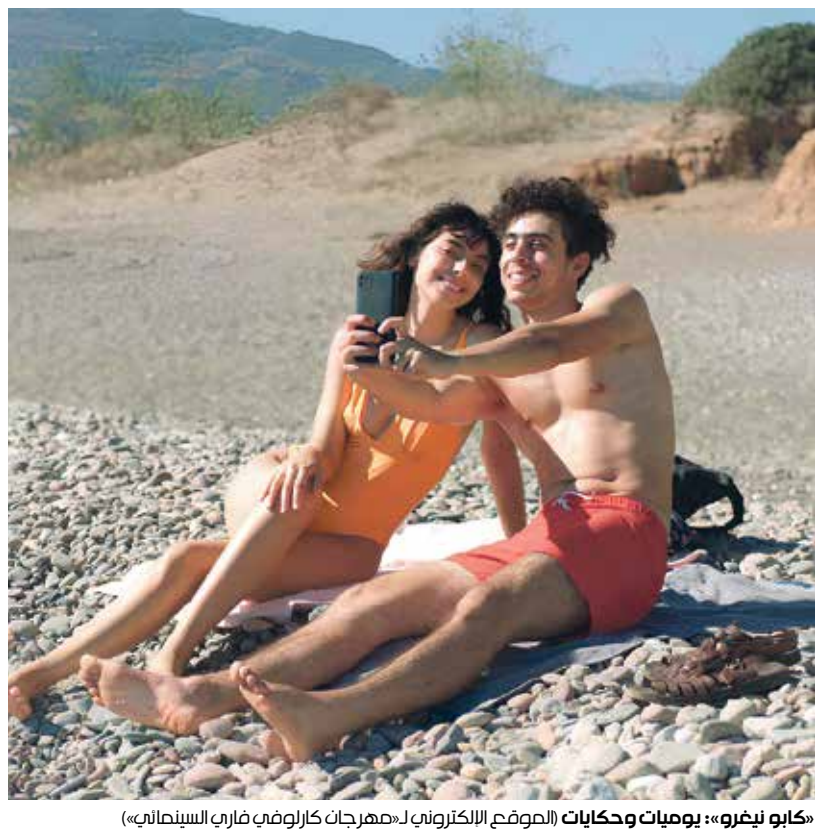

«كابو نيغرو»: يوميات وحكايات (الموقع الالكتروني لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي»)

أفلام جديدة

■ Agora للتونسي علاء الدين سليم، تمثيل مجد مستورة (Getty): مدينة معزولة، يأتيها مفقودون سابقاً بمظاهر غامضة، ما يخلق توتراً وقلقاً بين سكّانها. يسعى مفتش الشرطة المحلية إلى كشف غموض عودة هؤلاء الأشخاص، بمساعدة صديقه الطبيب أمين. تتعقّد الأمور عندما يصل مفتش الشرطة من العاصمة لاستجلاء الأمر، ما يُقسم السكّان بين مرحِّب بعودة المفقودين، ومن يعتبر عودتهم لعنة.

■ Green Line لسيلفي بايّو: «خط أخضر» (الملف الصحافي)، يُعرض في «مهرجان لوكارنو السينمائي» (الدورة 77، بين 7 و17 أغسطس/ آب 2024): من خلال جهاز مصنوع من مجموعات وتماثيل صغيرة، تواجه فداء رجال مليشيات سابقين منذ طفولتها في بيروت الغربية (بحسب لغة الحرب الأهلية اللبنانية، 1975 . 1990). إنّهم الرجال أنفسهم الذين ادّعوا حمايتها، لكنّهم أخافوها كثيراً.

■ Death Will come لكريستوف هاوتشاوزلر، تمثيل صوفي فيربيك (Getty)، ومارك ليمباك ومُراد زغْديني: رجل عصابات معروفٌ بعنفه، الأخطر من كل توقّع، يتعاقد مع قاتلة لتنفيذ مهمّة مستعجلة له، لقاء مبلغ كبير من المال. المهمّة مصنّفة في إطار الانتقام، أي أنّ هناك جانباً شخصياً في المهمّة. المشكلة الأكبر أنّ القاتلة نفسها، بعد وقتٍ قليل من قبولها المهمة، تجد نفسها في خطر، غير مفهومة أسبابه لها، فيُصبح إنقاذ نفسها أهمّ من كلّ شيء ومن كلّ أحد.

■ A Trop Jouer لماركو بيتري، تمثيل دنيس موجان وجانينا أوسي (WireImage): تدعو بيا صديقها الجديد جان إلى سهرة لعبتها المعتادة. يريد الشاب أنْ يُثير انطباعاً جيداً عند لقائه أصدقاءها للمرة الأولى. هناك مناخ متوتر: وصوله إلى السهرة، والوصول غير متوقّع للأصدقاء، يزيد الضغط على الجميع. ذلك أنّ جان سيلتقي في منزل بيا صديقتها السابقة أيضاً، وهذا غير مريح له ولبيا ولصديقتها.

■ Spaceman ليوهان رانْك، تمثيل آدم ساندلر وكاري موليغان (WireImage) وبول دانو: يُكلَّف عالم الفيزياء الفلكية جايكوب بروتشارزكا بمهمّة فضائية: تحليل سحابة غبار كبيرة حول كوكب الزهرة. قبل يوم واحد من الموعد المحدّد، يفضّل جايكوب، الذي هاجمته وسائل إعلامية، البقاء بمفرده. وحيداً، سيفكّر كثيراً في حياته كلّها.